

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَخْبَرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ وَعْدَهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِمَّنْ آمَنَ وَتَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَكَانَ تَقِيًّا، ذَكَرَ - هُنَا - أَنَّهُ كَيْفَ يَنْسَى رَسُولُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ أَوْ يُخْلِفُ وَعْدَهُ مَعَهُ بِإِتِمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، بِإِكْمَالِ الْوَحْيِ وَالْعَصْمَةِ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ وَالْمُشَاكِسِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا إِحْرَاجَهُ وَامْتِحَانَهُ بِالْأَسْئَلَةِ، وَإِذَا كَانَ قَدْ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى النَّبِيِّينَ الْمَذْكُورِينَ بِالْهَدَايَةِ وَالْاجْتِبَاءِ، فَأُولَى بِذَلِكَ خَاتَمُ رُسُلِهِ؛ فَكَيْفَ يَتْرُكُهُ أَوْ يُسْلِمُهُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ خَلْقِهِ أَوْ يَخْذُلُهُ عِنْدَهُمْ؟

الله يعصم
رسوله وينصره

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿نَنْزِلُ﴾: (نَزَلَ) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ وَوُقُوعِهِ⁽¹⁾، يُقَالُ: نَزَلَ الشَّيْءُ، يَنْزِلُ، نُزُولًا، أَي: هَبَطَ وَانْحَدَرَ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وَأَنْزَلَ الشَّيْءُ: جَعَلَهُ يَنْزِلُ⁽²⁾، وَالتَّنْزِيلُ: تَرْتِيبُ الشَّيْءِ وَوَضْعُهُ مَنْزِلَهُ، وَالتَّنْزِيلُ: نُزُولٌ فِي مُهَلَّةٍ وَتَكْلُفٍ⁽³⁾، وَمِنْهُ: (نَنْزِلُ) مُرَادِفُ نَزَلٍ، فَأُطْلِقَ ذَلِكَ عَلَى نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ نُزُولٌ نَادِرٌ وَخُرُوجٌ عَنْ عَالَمِهِمْ فَكَأَنَّهُ مُتَكَلَّفٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: 4]⁽⁴⁾، وَالْمُرَادُ بِالتَّنْزِيلِ فِي الْآيَةِ: النُّزُولُ عَلَى مَهَلٍ وَقَتًا بَعْدَ وَقْتٍ، وَهُوَ حِكَايَةُ قَوْلِ جَبْرِيلَ حِينَ اسْتَبْطَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).

(2) الجوهري، الصحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نزل).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نزل).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140/16.

(2) ﴿نَسِيًّا﴾: (نسي) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى إِغْفَالِ الشَّيْءِ، أَوْ تَرْكِهِ⁽¹⁾، يُقَالُ: نَسِيَ فُلَانٌ شَيْئًا كَانَ يَذْكُرُهُ وَإِنَّهُ لَنَسِيٌّ، أَي: كَثِيرُ النِّسْيَانِ، وَالنَّسْيُ: الشَّيْءُ الْمَنْسِيُّ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ⁽²⁾، وَالنِّسْيَانُ: تَرَكَ الْإِنْسَانُ ضَبْطًا مَا اسْتَوْدَعَ، إِمَّا لَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَإِمَّا عَنْ غَفْلَةٍ، وَإِمَّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ الْقَلْبِ ذِكْرُهُ، يُقَالُ: نَسِيْتُه نِسْيَانًا⁽³⁾، وَأَمَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿نَسِيًّا﴾: فَصِيفَةُ مُبَالَغَةٍ مِنْ نَسِيَ، أَي: كَثِيرُ النِّسْيَانِ أَوْ شَدِيدُهُ، وَقَدْ فَسَّرُوهُ هُنَا بِتَارِكٍ، أَي: مَا كَانَ رَبُّكَ تَارِكًا؛ وَعَلَيْهِ فَاَلْمُبَالَغَةُ مُنْصَرِفَةً إِلَى طَوْلِ مُدَّةِ النِّسْيَانِ، وَفُسِّرَ بِمَعْنَى شَدِيدِ النِّسْيَانِ، فَيَتَعَيَّنُ صَرْفُ الْمُبَالَغَةِ إِلَى جَانِبِ نِسْبَةِ نَفْيِ النِّسْيَانِ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ⁽⁴⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

استئناف لخطاب جبريل ﷺ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بقوله: (وما ننزّل - نحنُ الملائكةُ - مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَنَا بِالنُّزُولِ مَتَى شَاءَ؛ فَنَحْنُ عِبِيدُ مَأْمُورُونَ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَلَا تَسْتَبِطُنَّ نَزُولَنَا يَا مُحَمَّدُ ﷺ، فَلِلَّهِ وَحْدَهُ جَمِيعُ الْجِهَاتِ وَالْأَمَاكِنِ، وَجَمِيعُ الْأَزْمَانِ: الْحَاضِرَةِ وَالْمَاضِيَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ، فَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَنْتَقِلَ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، أَوْ فِي زَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ وَمَشِئَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ ﷺ ذَا نِسْيَانٍ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَإِنْ تَأَخَّرَ نَزُولُنَا إِلَيْكَ، فَلَيْسَ عَنْ نِسْيَانٍ مِنْهُ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ رَبُّكَ لَيْنَسَاكَ وَيُهِمِّلَكَ، بَلْ لَمْ يَزَلْ مُعْتَنِيًا بِكَ؛ فَلَا تَحْزَنْ إِنْ تَأَخَّرَ نَزُولُنَا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ ذَلِكَ)⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (نسي).

(3) الرّاعب، المفردات: (نسا).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140 / 16 - 141.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 584 / 15، والقاسمي، محاسن التأويل: 107 / 7، والسّعدّي، تيسير الكريم

الرّحمن، ص: 497.

الملائكةُ رُسُلُ
الله تعالى لا
تنزل على أحدٍ
مِنَ الأنبياء
والرُّسُل إلا بأمره

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

موقع صدر الآية:

جملة: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ مستأنفة مسوقة لحكاية قول جبريل عليه السلام، حيث استبطأه الرسول ﷺ لما سُئِلَ عن قصّة أهل الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيب، كما تقدّم، فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعين، حتّى قال المشركون: (ودّعه ربّه وقلاه)، فالواو استئنافية⁽¹⁾، ويصحّ أن تكون عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصّة على قصّة، مع اختلاف المخاطب⁽²⁾.

دلالة النفي بـ ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لنفي المضارع في الحال، أي: في الزّمن الحاضر، وتدلّ - هنا - على استمرار النفي كذلك، أي: لا نتلبّس بالنّزّل في الحال والاستقبال إلّا بأمر الله⁽³⁾، كما في قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، فتفيد الحال والاستقبال كذلك.

سرّ إثارة صيغة التّضعيف:

صيغة التّنزّل (تفعّل) في قوله ﴿نَنْزِلُ﴾: تدلّ على تكلف النّزول، فأطلق ذلك على نزول الملائكة من السّماء إلى الأرض؛ لأنّه نزول نادر، وخروج عن عالمهم فكأنّه متكلف⁽⁴⁾، وهو كذلك بالنّظر إلى أنّهم مكلفون بذلك، فنزولهم تكليف واجب، أو تدلّ الصّيغة على التّمهّل في النّزول، لأنّ نزول الوحي يحصل تدريجيّاً، فينبّه بعد الفيئة⁽⁵⁾، أو لأنّه لما كان نزولاً بعد انقطاع، عبّر عنه بالتّفعّل الدّالّ

من كمال
الإنعام على
الأنبياء أن
أنسهم الله
بالوحي

استمرار النفي
في الحال
والاستقبال

صيغة (تفعّل)
تدلّ على التّدريج
والإزالة والتّكلف
والصّيرورة

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 127 / 6.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 139 / 16.

(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 193 / 4.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140 / 16، والآلوسي، روح المعاني: 430 / 8.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 431 / 8.

على الصَّيرورة والتَّحوُّلِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، أو يُدَلُّ على إزالة شيءٍ وإظهارٍ آخرٍ، فأزال البُعدَ والغيابَ بإظهار التَّنَزُّلِ والمآبِ.

توجيه عودِ الضَّميرِ المُستَكِنِ في قوله: ﴿تَنْزَّلُ﴾:

الضَّميرُ المُستَكِنُ في قوله تعالى: ﴿تَنْزَّلُ﴾ لجبريل والملائكة، أعلم اللهُ نبيَّه على لسان جبريل أنَّ نزول الملائكة لا يقع إلَّا عن أمرِ الله تعالى، وليس لهم اختيارٌ في النُّزولِ ولقاء الرُّسل⁽¹⁾، والجمعيَّةُ في: ﴿تَنْزَّلُ﴾ تعظيمٌ للمُنزَّلِ عليه ﷺ.

معنى الاستثناء ودلالته:

الاستثناء في قوله: ﴿وَمَا تَنْزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أو مِنْ أعمِّ العلل، أي: (لا يحصل تنزُّلُ الملائكة لأَيِّ حالٍ مِنْ الأحوال، أو لأَيِّ علَّةٍ مِنَ العلل، إلَّا بِأَمْرِ مِنَ اللهِ وإِذْنٍ مِنْهُ)، وتفريغُ الاستثناء أعمُّ وأشملُ في إفادة القَصْرِ.

سِرُّ إيثار القصر نفياً واستثناءً:

القَصْرُ بالنَّفْيِ والاستثناء في قوله: ﴿وَمَا تَنْزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، يقع فيما يُكره المخاطَبُ أو ما يُنزَّل منزِلته⁽²⁾، فلمَّا كان المقامُ مقامَ استبعادٍ وإنكارٍ مِنَ المُشركين، ناسبه أسلوب النِّفي والاستثناء، وهو أوكَدُ أنواع القَصْرِ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَمْرِ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ للسَّبَبِيَّةِ أو للمُلابسة، حيثُ ينزل الوحي بسبب الأمر أو مُلتبساً بالأمر.

سِرُّ التعبير بعنوان الرِّبوبيَّة مضافاً إليه ضميرُ الخطاب:

إِسنادُ الأمرِ إلى وصف الرِّبوبيَّة مضافاً إلى ضمير الخطاب؛ إيناساً للنبي ﷺ، وإزالةً لاستيحاشه بغياب الوحي، وإشارةً إلى أنَّه لم

مَنْ استأنس
بالوحي
استوحش مِنَ
النَّاسِ

إذا غَدِمَ الأمر
امتنع التَّنَزُّلُ

اصطفاء
التَّراكيب بحسب
مقتضى الحال

ما يزال الوحي لله
موصولاً بحبل
الله مِنَ العطاء
والإمداد

(1) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 140 / 16.

(2) فاضل السَّامرائي، معاني النَّحو: 250 / 2.

يُعدم تواتر الإحسان من ربه عليه، فغياب الوحي كان لحكمة في علم الله، لا عن هجر ومفارقة له، فعبر بالربوبية وأضافها إليه؛ للدلالة على أنه لم يزل موصولاً بحبل الربوبية، وآثارها من الإنعام والإكرام.

عِلَّةُ فصل جملة: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾:

جملة: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ استئناف بياني⁽¹⁾ من الجملة قبلها، بينهما شبه كمال اتصال، ولذلك فصلت وغاب العاطف، والاستئناف البياني على تقدير أنه جواب عن سؤال مُقدّر عن عِلَّة الحكم بعدم التّنزل لعدم الأمر، فيكون قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ في معنى العلة لما قبله.

نُكْتَةُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

التعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أفاد تحقيق مضمونها وثبوته، وهو كون الأمور كلها مملوكة له ﷻ وحدّه على الدوام والاستمرار، من الأزل إلى الأبد، فصورة المعنى هي الأحقّ به، والألصق به.

معنى اللام في ﴿لَهُ﴾:

اللام في ﴿لَهُ﴾ للملك، وهو ملك التصرف والحكم⁽²⁾، فمن فوّض إلى تدبير الله استراح واعتصم.

نُكْتَةُ تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

تقديم شبه الجملة على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، أفاد الاختصاص والقصر، أي: له وحده لا غيره.

دلالة التّعبير باسم الموصول العام ﴿مَا﴾:

التعبير بالموصول العام ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ لإفادة العموم في الملك والحكم، أي: كل

خضوع الخلق
لأمر الله
اضطراري

لا تخرج التدابير
والأمور عن
حكم الله

عموم إحاطة
الله وعلمه
بالجزئيات
والكليات

(1) صافي، الجدول: 16 / 322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16 / 140.

كائنٌ بين أيدينا له، وكلُّ كائنٌ خلفنا له، وكلُّ كائنٌ بينهما)، ويفيد الإيهام، يعني: (أياً كان حاله أو مكانه أو زمانه أو ذاته، فهو مقهورٌ مقدورٌ عليه) (1).

بلاغة الطباق:

بين قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وقوله: ﴿خَلْفَنَا﴾ طباقٌ بالإيجاب، صرّح فيه بإظهار الضدين؛ لأنَّ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: قُدَّامَنَا في المستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: وراءَنَا في الماضي، وهذا الطباق من شأنه أن يَشْغَلَ النَّفْسَ وَالْقَلْبَ بطرفيه وعمقهما واتساعهما، فتطمئنَّ لحُكم الله وقضائه ومُرادِهِ.

بلاغة الكناية:

قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ كناية عن استغراق ملكية الله التامة لمواقع الزمان والمكان وما تحيِّز بهما من موجودات وما تعلّق بهذه الموجودات من معلومات وأحوال جزئية وكلّية (2)، أو مجازٌ مرسل علاقته الحلول، فأطلقَ المحلَّ وأراد الحال (3).

بلاغة العطف في: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾:

قوله: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ معطوف على ما قبله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ (4)، فهو تثليثٌ يستوفي الجهاتِ والمواقعَ الزمانيةَ والمكانيةَ، في الماضي والمستقبل وما بينهما وهو الحاضر، وأحوالُ الموجوداتِ كافة لا تخرج عن هذه الثلاثة، واسم الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ يعود على مضمون الجملتين قبله، أي: المذكور فيهما.

موقع جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾:

جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ﴾ (5)

(1) الألوسي، روح المعاني: 431/8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 140/16.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 555/21.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140/16.

(4) صافي، الجدول: 321/16.

(5) صافي، الجدول: 322/16.

نَوَاصِي الْأَشْيَاءِ
وَزِمَامُ الْجِهَاتِ
فِي قَبْضَةِ الْقَدِيرِ
سُبْحَانَهُ

ضَمَانَاتُ
الْأَحْوَالِ وَالْأَجَالِ
بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

تَدْبِيرُ الْمَاضِي
وَالْحَاضِرِ
وَالْمُسْتَقْبَلِ بِيَدِ
اللَّهِ وَحْدَهُ

يَصِحُّ التَّكْيِيدُ مَعَ
الْعُطْفِ إِذَا لَمْ
يَكُنْ مَقْصُودًا فِي
بِنَاءِ الْجُمْلَةِ

مِنْ قول جبريل ﷺ للرسول ﷺ؛ تذييلًا لما قبله، أو استئناف من قول الله سبحانه بعد قول جبريل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾، فيكون الكلام جاريًا على قسمين؛ القول الخاص بالملائكة في التَّنْزِيلُ بأمر الله، والقول الخاص بالله سبحانه في تأكيد الوصال بينه وبين رسوله، وتأكيد تنزل الوحي بأمره وإبطال ادعاء المشركين بالجفوة عن رسوله، بتنزيه الله عن نسيان خليله، وترك نبيه ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تذييلٌ بديع، جاء مُتَمِّمًا كالتأكيد والعلة لما قبله⁽¹⁾.

توجيه نظم الآية بحسب كل قائل:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ يصح أن يكون من قول جبريل ﷺ حكاية عن نفسه وعن الملائكة، ردًا على ادعاء المشركين بمجافاة الله لنبيه ﷺ، ويكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من تمام قوله تذييلًا، كالتأكيد والتعليل لجملة النفي والاستثناء، بتقرير أن ما افتروه مدفوعٌ، بأن تنزلهم لا إرادة لهم في إنشائه، بل هو إلى الله، ومدفوعٌ بأن الله إذا لم يأمرهم بالتَّنْزِيلِ لا ينزلون، فعن علم وحكمة لا عن تركٍ ونسيان، وتكون الجملة مُقْحَمَةً في السياق، معناها مُبَايِنٌ لما قبلها وإن كان له به مناسبة، في أن الله إذا كان حافظًا وعده لأهل الجنة ممن آمن وتاب وعمل صالحًا وكان تقياً، فكيف ينسى رسوله أو يتركه أو يُخلف وعده معه بإتمام نعمته عليه بإكمال الوحي، والعصمة من المشركين والمشاكسين الذين أرادوا إحراجه وامتحانه بالأسئلة، وإذا كان قد أتم نعمته على النبيين المذكورين بالهداية والاجتباء، فأولى بذلك خاتم رسله، فكيف يتركه أو يُسَلِّمُ أكرمَ خلقه إليه لأهون خلقه عليه؟.

لا يُسَلِّمُ الله
أكرمَ خلقه إليه
إلى أهون خلقه
عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 141 / 16.

ويحتمل: "أَنَّ هذه الآية من تمام حكاية كلام أهل الجنة، بتقدير فعل: (يقولون)، حالاً من قوله: ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، أي: وما ننزل في هذه الجنة إلا بأمر ربك ... إلخ، وعليه: فكاف الخطاب في قوله: ﴿يَأْمُرُ رَبُّكَ﴾ خطابٌ كلِّ قائلٍ لمخاطبه"⁽¹⁾، ويكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من كلام أهل الجنة، أي: وما كان ربنا غافلاً عن إعطاء ما وعدنا به⁽²⁾، أو نسيًّا بإهمالنا وخُلف وعده معنا، والوجه الأول أظهر لتمام برهانه.

دلالة النفي بـ ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تأتي ردًّا على قول أو ما نزل هذه المنزلة، وهي هنا على هذا النحو، فإنَّ جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ داخلة في حيز الردِّ عليهم وجوابهم، وتتميمٌ لتعليل الانقطاع عن التنزل، وهي تأتي لنفي الماضي القريب من الحال، وقد تأتي لنفي الماضي البعيد كذلك، وهذه الآية من هذا القبيل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: منذ الأزل في الماضي البعيد والقريب، مع عدم انقطاع النفي بعد ذلك إلى الأبد، وهي تنفي الحدث الماضي بصورته التامة المنقضية إلى قبيل اللحظة التي وقع فيها خطابهم⁽³⁾.

نُكْنَةُ التعبير بفعل الكون الماضي:

﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تدلُّ على ثبوت خبرها لاسمها في حيز النفي، أي: ثبت وتحقق انتفاء النسيان عن الله سبحانه أزلاً وأبداً، على الدوام والاستمرار، ففعلُ الكونِ الماضي لا يدلُّ على الانقطاع الطارئ في الحاضر أو المستقبل⁽⁴⁾، وناسب المجيء به ماضياً لتعلقه بقصة انقطاع الوحي، وهي ماضية، أي: ما

تأتي (ما) لنفي
ما يقع جواباً أو
رداً على شيء

كمالات الله
ثابتة محققة أزلاً
وأبداً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 141/16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 141/16.

(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 193/4.

(4) الزمخشري، الكشاف: 400/1، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 336/8.

كان نسيًّا له في ذلك الذي حصل، ولتعلقه بالتقدير الأزلي، أي: لم ينس لأنه كتب على نفسه أزلًا ألا يهمل رُسله، وللدلالة على أن ثبوت كمالات الله وانتفاء النقائص عنه متحقق ثابتٌ أزلًا، وتحقق الكمال في الأزل ينفي الطروء المسبوق بانقطاع في الماضي، ومن كان كذلك كان استمرار كماله وعدم انقطاعه في الحاضر والمستقبل أولى، وهذا هو نكتة مجيء الكون ماضيًا.

سِرُّ إظهار التعبير بالربوبية مضافًا إليها ضميرُ الخطاب:

كرّر خطابه ﷺ بوصف الربوبية المضاف إلى ضميره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ إشعارًا بعلّة انتفاء النسيان له وهجره⁽¹⁾، أي: إذا كان هوربك الذي وصلك بحبل ربوبيته إليه، فكيف يهجرُك أو ينساك؟! لا يجتمعان! ولا يخفى ما في تكرار الخطاب بالربوبية من المبالغة في تكريم النبي ﷺ، بما يؤكد قربه وخصوصيته.

نُكْتَةُ التعبير بصيغة المبالغة ﴿نَسِيًّا﴾:

﴿نَسِيًّا﴾ على وزن (فعل)؛ صيغة مبالغة من نسي ناسيًّا⁽²⁾، أي: عظيم النسيان، ونُكْتَةُ مجيئه بصيغة المبالغة، ولم يقل: (ناسيًّا)؛ لانصراف المبالغة إلى طول مُدّة النسيان⁽³⁾؛ لأنّ كلّ نقص مفترض ولو كان ضئيلاً طالما تعلّق بالعظيم الكامل، فهو بالنسبة إليه عظيمٌ جسيم، ولذا جاء اسمُ الفاعل على صيغة المبالغة في ﴿نَسِيًّا﴾.

الفروق المُعْجَمِيَّة:

التَنَزُّلُ والتَّدَلِّي:

أصل (دَلَى) يدلُّ على مقاربة الشيء ومُدانته بسهولة ورفق⁽⁴⁾،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 273 / 5.

(2) صافي، الجدول: 322 / 16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140 / 16.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلى).

الرَّبُّ لَا يَنْسَى
خَلْقَهُ

والتَّدَلِّي: الدُّنُو والاسترسال⁽¹⁾، ومنه: أَذَلَّتِ الدَّلْو ودَلَّيْتُهَا إِذَا أَرَسَلْتُهَا فِي الْبَيْرِ⁽²⁾، والدَّلْو: هو الوعاء الْمُرْسَل لِلتَّوَصُّلِ لِلْغَرَضِ، كماء البئر ونحوه، فَسُمِّيَ بِالصَّفَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا، وَهِيَ التَّدَلِّي.

وَأَصْلُ (نَزَلَ) يَدُلُّ عَلَى انْحِطَاطٍ مِنْ عُلوٍّ إِلَى سُفْلٍ⁽³⁾، وَقَدْ يُرَادُّ بِهِ مُجَرَّدُ الْحُلُولِ⁽⁴⁾، وَمِنْهُ الْمَنْزِلُ: مَوْضِعُ النَّزُولِ، لِأَنَّكَ تَحِلُّ بِحِطِّ نَفْسِكَ وَرَحْلِكَ فِيهِ، وَفِي النَّزُولِ ثَلَاثُ مَعَانٍ تُمَيِّزُهُ عَنِ التَّدَلِّي: الْانْفِصَالُ وَالْانْقِضَاظُ وَالْحُلُولُ، فَالشَّيْءُ حَتَّى يَنْزَلَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ، وَفِي النَّزُولِ مَعْنَى الْوُقُوعِ وَالْانْحِطَاطِ وَالْانْقِضَاظِ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْانْفِصَالِ، وَفِيهِ مَعْنَى الْحُلُولِ، أَي: يَحِلُّ وَيَسْتَقَرُّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، فَلَا يَتَعَلَّقُ بِجِهَتَيْنِ، وَالتَّدَلِّي لَا يَشْتَمِلُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ، بَلْ يَتَعَلَّقُ وَلَا يَنْفَصِلُ، فَالشَّيْءُ الْمُدَلَّى مُتَعَلِّقٌ بِجِهَتَيْنِ، وَلِذَا يَظْهَرُ مُعَلَّقًا غَيْرَ مُنْقَضٍ وَلَا مُنْفَصِلٍ، وَهُوَ وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَى مَعْنَى النَّزُولِ إِلَّا أَنَّهُ نَزُولٌ يُبَسِّرُ وَتَوَدَّةٌ غَالِبًا، فَلَا يَنْحَطُّ وَلَا يَقَعُ بِشِدَّةٍ، وَهَذَا مِنْ لَوَازِمِ التَّعْلِيقِ وَعَدَمِ الْانْفِصَالِ، وَكَذَا الْحُلُولُ، فَالتَّدَلِّي لَا يَحِلُّ فِي مَوْضِعٍ مُنْفَصِلًا عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، بَلْ هُوَ غَالِبًا مَاسِكٌ بِالْجِهَةِ الَّتِي تَدَلَّى مِنْهَا، وَكَأَنَّ فِي الْجِهَةِ الَّتِي تَدَلَّى إِلَيْهَا، وَلِذَا أُسْنَدَ النَّزُولُ لِلْوَحْيِ دُونَ التَّدَلِّي؛ لِمُرَاعَاةِ مَعْنَى الْانْقِضَاظِ وَالْانْفِصَالِ فِيهِ مِنْ الْعُلُوِّ إِلَى الْأَرْضِ.

النَّسْيَانُ وَالتَّرْكُ:

النَّسْيَانُ: زَوَالُ ذِكْرِ الشَّيْءِ فِي النَّفْسِ، وَلَا زَمَّ النَّسْيَانِ التَّرْكَ وَالْإِهْمَالُ، لِأَنَّ تَلَاشِي التَّذَكُّرِ مُؤَذَّنٌ بِعَدَمِ اسْتِحْضَارِ الْمَذْكُورِ أَصْلًا،

التَّرْكُ يَكُونُ
لِحَاصِلِ
فِي الدَّهْنِ،
وَالنَّسْيَانُ يَكُونُ
لِغَائِبِ عَنْهُ

(1) الرَّغْبُ، الْفُرْدَاتُ: (دَلُو).

(2) ابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (دَلَا).

(3) الرَّغْبُ، الْفُرْدَاتُ: (نَزَلَ).

(4) السَّمِينُ، عَمْدَةُ الْحِفَاطِ: (نَزَلَ).

فتغيب صورته من الذهن، فيقع الإعراض عنه؛ لأنه في حكم غير الموجود، بل يقع الإعراض عن كونه موجوداً أصلاً!

وأما الترك: فهو مغادرة ما هو مذكور في النفس وحاضر في الإدراك، لأن صورته الحاصلة في الواقع لم تتلاش أو تغيب عن العقل، ولكنه ترك عمداً رغم استحضاره، فالإعراض فيه عن ذات الشيء، لا عن كونه وجوده.

فالترك يكون لموجود قائم في ذهن التارك، والنسيان يكون تركاً بسبب عدم وجود الشيء وغيابه في ذهن الناسي، فاستعمال النسيان هاهنا في معنى الترك في قوله: ﴿نَسِيًّا﴾ مجاز، علاقته الملزومية، لأنه متى وجد النسيان لزم عنه الترك⁽¹⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرغب، المفردات: (ترك - نسي)، وابن منظور، اللسان: (نسا)، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقى: (ترك - نسي).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 31، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-73-0

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 31: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريم من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-73-0

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»